الفصل الخامس

تراجم حديثة

١

تراجم مختلفة

نهج المحدثون نهج قدمائنا فى الترجمة لأنفسهم ، وقد اطلع من أتقن منهم اللغات الأجنبية على ما لدى الغرب من ترجمات شخصية . فكان القديم العربى والجديد الغربى باعثاً لهم على الترجمة لأنفسهم ، ولعل أهم من ترجموا لأنفسهم فى القرن الماضى على مبارك ؛ فقد كتب فى مؤلفه « الخطط التوفيقية » سيرة حياته ، واستخرجها منه الدكتور محمد درى الحكيم ونشرها مفردة . وهى سيرة طويلة تقع فى نحو ستين صحيفة . ألم فيها إلماماً دقيقاً بنشأته وتعلمه فى مصر وفرنسا . كما ألم بوظائفه وتقلباته فى الحكومة وخارجها . وما قام به من أعمال وإصلاحات فى التعليم وغيره . وقد كتبها سنة ١٨٨٩ للميلاد أى قبيل وفاته بقليل . فهى سيرة كاملة .

ويعرفنا فى أولها بقريته « برنبال الجديدة » التى تقع فى الشمال الشرقى للدلتا على البحر الصغير بالقرب من المنصورة ، وكان بها أربع حارات ومسجد وكُتَّاب ومعملان لتفريخ الدجاج وأربعة أنوال يدوية للنسيج ودكان لعطار وآخر لصباغ ، وضريحان لوليَّين وبعض صُناع كنجار للسواقى ونوتى للمراكب . وفى هذه القرية ولد على مبارك سنة ١٢٣٩ هـ / ١٨٢٣ م للشيخ مبارك خطيب المسجد وإمامه ومأذون البلدة الذى يعقد عقود الزواج بها ، ويفتى الناس فى شئونهم الدينية .

ولما صَلُبَ عوده بعض الصلابة أرسله أبوه إلى كتّاب القرية ، وكان المقرئ فيه شيخاً ضريراً قاسياً يضرب الصغار ويعنف بهم ، مما كرّه «على مبارك» فى التعلم وحفظ القرآن . وحدث أن رُميت على أبيه وأسرته أرض ، عجزوا عن دفع ضرائبها للحاكم . فبيعت بهائمهم ، وسيموا العذاب على نحو ما هو مشهور عن الأسرة العلوية وحكمها لمصر فى القرن الماضى . وتشتتت أسرة على مبارك فى البلاد ، ونزل أبوه بعرب فى الشرقية يسمون « السماعنة » فاتخذوه شيخاً لهم وكفوه مئونته . ولما استقرت به النّوى أرسل ابنه إلى كُتّاب يعلم فيه شيخ يسمى أبا الخضر ، ولم تمض مدة طويلة بعلىٍّ حتى نفر من هذا الكُتّاب كما نفر من كتاب بلدته السابق ، فماذا يصنع أبوه ؟ لقد رأى أن يلحقه بكاتب ممن يكتبون للناس فى شئونهم اليومية ، ولم يعجب ذلك علياً ، فطرّف فى البلاد القريبة ، ولقى كثيراً من صنوف المشقة ، وما زال على ذلك حتى اشتغل كاتباً صغيراً بين يدى « عنبر أفندى» مأمور زراعة القطن بأبى كبير . وعجب على حين رآه أسود حبشياً ، وعرف عنه أنه تعلم بمدرسة « قصر العينى » فطمحت نفسه أن يلتحق بها ، وأن يصبح مثله من الحكّام . وعرف فيما عرف أن هناك مفتشاً للحكومة يمر بمكاتب القرى ، يختار منها الطلاب النابهين ، فيلحقهم بالمدرسة المذكورة . فترك عمله ، والتحق بكُتّاب . ومر المفتش بهذا الكتاب ، فأعجب به ، واختاره فيمن يختارهم للمدرسة ، وكانت سنه إذ ذاك اثنتى عشرة سنة . ودخل المدرسة . فلم ترقه ، إذ لم تكن بها عناية بمأكل ولا ملبس . وكانت بها روح عسكرية شديدة . وكاد أن يرجع لولا أن أنعم الله عليه : فنقل إلى مدرسة الهندسة بأبى زعبل سنة ١٢٥٢ هـ / ١٨٣٦ م . يقول :

« وكان أثقل الفنون علىّ وأصعبها فن الهندسة والحساب والنحو ، فكنت أراها كالطلاسم . وأرى كلام المعلمين فيها ككلام السَّحَرَة . وبقيت كذلك مدة إلى أن جمع المرحوم إبراهيم بك رأفت متأخرى التلامذة فى آخر السنة الثالثة من انتقالنا إلى مدرسة أبى زعبل ، وجعلهم فرقة مستقلة ، فكنت أنا منهم ، بل

آخرهم . وجعل نفسه هو المعلم لهذه الفرقة . فى أول درس ألقاه علينا أفصح عن الغرض المقصود من الهندسة بمعنى واضح وألفاظ وجيزة . . فانفتح من حسن بيانه قُفْلُ قلبى ووعيت ما يقول ، وكانت طريقته هى باب الفتوح علىّ . ولم أقم من أول درس إلا على فائدة ، وهكذا جميع دروسه بخلاف غيره من المعلمين . فلم تكن لهم هذه الطريقة . وكان التزامهم لحالة واحدة هو المانع من الفهم ، فختمت عليه فى أول سنة جميع الهندسة والحساب وصرت أول فرقتى . . وكان رأفت بك يضرب بى المثل ويجعل نجابتى على يديه برهاناً على سوء تعليم المعلمين ، وأن سوء التعليم هو السبب فى تأخر التلامذة . وفى تلك السنة ، وهى سنة ١٢٥٥هـ فرزوا منا تلامذة لمدرسة المهندسخانة ببولاق ، فاختارونى فيمن اختاروه ، فأقمت بها خمس سنين ، وأخذت جميع دروسها ، وكنت فيها دائماً أول فرقتى » .

وفى سنة ١٢٦٠هـ/١٨٤٤م أُرسل بَعْثٌ علمى إلى فرنسا ، فكان بين مبعوثيه ، وأقام بها خمس سنوات تعلم فيها الفرنسية وأتقنها كما تعلم الهندسة الحربية والمدنية ، وعاد فى عهد عباس الأول ، وكانت مصر تجتاز دوراً من أدوار محنتها فقد أغلق المدارس ، وخفض ميزانية التعليم إلى خمسة آلاف جنيه فى العام ، والتحق على مبارك بمدرسة فى « طرة » ولم يكن فيها إلا جماعة قليلة متقدمة فى السن . وفى تلك المدة تزوج بكريمة أحد معلميه فى مدرسة أبى زعبل ، ثم حدثته نفسه بزيارة أهله وكانوا قد عادوا إلى « برنبال » . يقول واصفاً للمفاجأة والزيارة :

« فوجدت أبى قد سافر إلى مصر لزيارتى ، ولم أجد فى المنزل إلا والدتى وبعض إخوتى ، وكان دخولى عليهم ليلا ، فطرقت الباب ، فقيل من أنت ؟ فقلت ابنكم على مبارك . وكانت مدة مفارقتى لأمى أربع عشرة سنة لم ترنى فيها ولا سمعت صوتى ، فقامت مدهوشة إلى ما وراء الباب ، وجعلت تنظر وتحدّ النظر وكنت بقيافة العسكرية الفرنساوية لابساً سيفاً وكسوة تشريف . وكررت السؤال حتى علمت صدقى ، ففتحت الباب وعانقتنى ووقعت مغشيًّا عليها ثم أفاقت ، وجعلت تبكى وتضحك وتزغرد ، وجاء أهل البيت والأقارب والجيران ،

وامتلأ المنزل ناساً ، وبقينا كذلك إلى الصباح ، والناس بين ذاهب وآيب . ثم رأيت والدتى فى حيرة فيما تصنعه لى من الإكرام، وتريد عمل وليمة وهى فارغة اليد، ورأيتها تبكى ، ففهمت حقيقة الحال ، فناولتها عشرة « بنتو » كانت بجيبى ، ففرحت وأولمت ، وأقمت عندهم يومين ، ثم استأذنتهم ووعدتهم بالعود » .

وألمت بعلى مبارك أيام بؤس ونعيم ، وكان ذلك حال الموظفين المتصلين بالأسرة العلوية ، وخاصة كبارهم ، فيوماً يرضون عنهم ويوماً يغضبون . ولما تولى سعيد غضب عليه وألحقه بالفرقة الحربية التى سافرت لتؤازر الدولة العثمانية فى حروبها مع الروس . وفى هذه الرحلة تعلم التركية وعاد إلى مصر ، فكان يوظف حيناً ويطرد فيشتغل بالتجارة أو الهندسة الحرة حيناً آخر . وذهب عهد سعيد وجاء عهد إسماعيل فقام فيه بإصلاحات هندسية كثيرة ، وأسند إليه ديوان التعليم ، فنهض به خير نهوض ، وهو أكبر مصلح للتعليم عرفته مصر فى القرن الماضى ، ولم يعن فقط بالتعليم العالى ، بل عنى به فى جميع مراحله ، يقول :

« وكانت كثرة أشغالى لا تشغلنى عن الالتفات إلى ما يتعلق بأحوال التلامذة والمعلمين ، فكنت كل يوم أدخل عندهم بكرة وعشيًّا عند غدوى من البيت ورواحى . وأعملت فكرى فيما يحصل به نشر المعارف وحسن التربية . وكانت المكاتب الأهلية فى المدن والأرياف جارية على العادة القديمة ليس فيها إلا تعليم القرآن الشريف ، وأقل من القليل من يتممه منهم ويجيد حفظه ويجوّده ويحسن قراءته مع رداءة الخط فى عامة المكاتب المذكورة . فاستحسنت إجراءها على نسق المدارس المنتظمة ، فحررت لائحة بتنظيمها . . ورُتب مفتشون لرعاية العمل بموجبه ، وأنشأت مدارس مركزية فى بعض مدن القطر كأسيوط والمنيا وبنى سويف وبنها . وانتخب لكل منها المعلمون والضباط ، وعُيِّن لها سائر الخدمة . ورتبت بها أدوات التعليم . ورغب الناس فى تعليم أولادهم بها وكثرت فيها الأطفال . وأنشأت فى القاهرة والإسكندرية بعض مكاتب على هذا الأسلوب مثل مكتبى "القربيّة" أحدهما للبنات والآخر للأطفال الذكور ومكتب الجمالية

ومكتب باب الشعرية ومكتب البنات بالسيوفيّة . . »

وبذلك تحول التعليم فى مصر من دوائره الحربية الخاصة التى أرادها محمد على إلى دوائر الثقافة الشعبية . وهى صفحة بيضاء ومأثرة جليلة لعلى مبارك ، إذ نقل التعليم نقلة واسعة ، ولم يقصره على الذكور كما كان من قبل ، فكان ذلك نواة نهضتنا العلمية . وقد فكر فى تعليم اللغة العربية ، وكان تعليمها عقيما على الطريقة الأزهرية ، ولقى هو نفسه فى هذه الطريقة غير قليل من العنت ، كما حدثنا آنفاً ، إذ كان يرى النحو كأنه طلاسم ، ولم يفتح عليه فيه ، من أجل ذلك كله أنشأ مدرسة « دار العلوم » لتنهض بالدراسة الأدبية واللغوية على نمط جديد . وألحق بالمدارس مطبعة لطبع ما يلزم من الكتب لها ، وأنشأ مجلة سميت « روضة المدارس المصرية » وأقام قاعة للمحاضرات العامة ، وكانت المحاضرات تلقى فيها يوميًّا ما عدا أيام الجمع ، وإليه يرجع فضل إنشاء دار الكتب المصرية فقد جمع الكتب المتفرقة بالمساجد فى مكان واحد ، وضم إليها كثيراً من الكتب الأجنبية ، ونظم الاطلاع فيها والاستعارة منها . وبجانب ذلك كان يؤلف ويشجع على التأليف ، للتلاميذ وغير التلاميذ .

والحق أن هذه الترجمة غنية بمعارف كثيرة ، وهى معارف نطّلع من خلالها على وجوه حياتنا التعليمية فى القرن الماضى ، فقد تصادف أن كان على مبارك أهم من نهضوا بتلك الحياة حينئذ ، وسجل كل ما صنعه فيها ، بحيث تعد هذه الترجمة وثيقة خطيرة للتعليم فى عهد إسماعيل . وكان يتولى أحياناً ديوان الأوقاف أو ديوان الأشغال أو نظارتهما ، فيدخل كثيراً من ضروب الإصلاح . ونراه يعرض للديون التى أثقل بها إسماعيل كاهل مصر كما يعرض لثورة عرابى . وقد عاد إلى الوزارة فى عصر الاحتلال ، ولكنه لا يعرض علينا شيئاً من أعماله ، فقد شلّ المحتلون يده ، حتى ليقول : « وها أنا الآن قائم بهذا الأمر على حسب المصالح بقدر الإمكان . . وآخذ فى تأدية ما فرض علىّ قياماً بحق وطنى » .

وإذا كان يؤخذ على هذه السيرة شىء فهو نكوص صاحبها عن الاشتراك فى

الثورة العرابية ، وهى ثورة وطنية كان من واجبه أن يخوض غمارها ، وليكن ما يكون، ولكنه كان يؤثر الدعة، فغادر القاهرة إلى «برنبال» مهتماً بإصلاح أراضى له هناك وزراعتها ، ثم عاد فعمل مع المحتلين ، وكان خيراً له أن يعتزل العمل ويظل بعيداً عن السياسة وأوزارها فى ذلك الوقت التعس الذى كان يرزح فيه الوطن تحت كابوس الاحتلال . وقد توفى سنة ١٨٩٣ م .

ونمضى فى القرن العشرين فنجد كثيرين يترجمون لأنفسهم لا فى مصر وحدها . بل فى بلدان العالم العربى المختلفة، ومن أشهر من كتبوا حياتهم «محمد كرد على» أديب سوريا وعالمها الذى توفى منذ سنوات قريبة، فقد ترجم لنفسه فى نهاية الجزء السادس من كتابه « خطط الشام » . ونراه يقول إنه كردى الأصل ، نزح جده من السليمانية إلى دمشق فى التجارة. وفيها صادر بعض حكّام الترك الظالمين أملاكه ، وعاش مجرداً من ثروته ، يقول :

« وخلّف والدى يتيما فقيراً ، فاشتغل لأول أمره فى صناعة الخياطة ثم فى التجارة ، فأثرى مرات ، وخسر مرات ، وابتاع فى آخر أمره مزرعة صغيرة فى الغوطة تمزّزتها أنا وإخوتى منذ كنا صغاراً وإلى الآن . ولدت فى دمشق أواخر صفر سنة ١٢٩٣ هـ / ١٨٧٦ م من أم شركسية ، ولما بلغت السادسة فى العمر أخذت بتلقى القراءة والكتابة ومبادئ العلوم الإسلامية والحساب والطبيعيات فى مدرسة كافل سيباى الأميرية ، ونلت شهادتها من الدرجة الأولى . ثم دخلت المكتب الرشدى العسكرى فدرست مبادئ التركية ، وكانت دروس الإفرنسية ناقصة ، فأتانى والدى بمعلم إلى الدار أخذت عنه نحو هذه اللغة وصرفها على الأصول مدة ثلاث سنين ، وبرعت بالترجمة من الإفرنسية إلى العربية وبالعكس. ولما أحرزت شهادة المدرسة الرشدية . . عينت مدة ست سنين موظفاً فى قلم الأمور الأجنبية ، فأخذت فى خلالها أتقن آداب التركية . . وقد اختلفت حولين كاملين إلى المدرسة اللعازاريين للاضطلاع بآداب اللغة الفرنسية . . وقد اقتطعت مع ذلك

جانباً من الوقت لدرس الآداب العربية والعلوم الإسلامية . وتلقيت اللغة الفارسية حتى حذقتها ثم أنسيتها » .

ويقول إنه كان أكبر من وجهه نحو الدعوة إلى الإصلاح الاجتماعى وإشراب روحه محبة العرب وآثارهم وإقدامه على النشر والتأليف أستاذه الشيخ طاهر الجزائرى ، وقد انبعثت فيه رغبة شديدة إلى مطالعة كتب الفلاسفة وعلماء الاجتماع وأصول الشعوب ومدنياتهم ، فقرأ كثيراً من كتب الفرنسيين وعكف على قراءة مجلاتهم المختلفة. ولم يلبث أن أصبح صحفياً ، إذ حرر جريدة (الشام) الأسبوعية ثلاث سنين وراسل مجلة المقتطف بمصر ، وأخذ اسمه يلمع ويشتهر . وزار القاهرة سنة ١٩٠١ ودُعى إلى التحرير فى مجلة الرائد المصرى ، فلبى الدعوة ، واختلف إلى دروس الشيخ محمد عبده ومجالسه . ثم عاد إلى دمشق وكانت عين الحكام الترك عليه ، فكانوا يفتشون داره مراراً . ودعاه ذلك إلى الهجرة ثانية إلى مصر ليصدر فيها مجلته المقتبس واشترك معها فى تحرير جريدة الظاهر اليومية وجريدة المؤيد التى كان يحررها الشيخ على يوسف . وتعرف فى أثناء ذلك على كثير من رجالات مصر البارزين . حتى إذا حدث الانقلاب العثمانى سنة ١٩٠٨ شعر كما شعر غيره من العرب بأن الحكم التركى ستخف وطأة ظلمه ، وأن ساستهم سيعرفون ما للشعوب من حقوق . فرجع إلى دمشق وأصدر جريدة المقتبس يومية سياسية . ويعترف بأنه لم يكن يرى الانفصال عن الدولة العثمانية. إنما كان يريد الإصلاح ما استطاع ، ومع ذلك تولاه حكام الترك بالنقمة والسخط الشديد . فغادر الشام إلى فرنسا ، وتعرف فيها على بعض فلاسفتها وكُتَّابها . وكتب فى وصف هذه السياحة طائفة من المقالات وجمعها باسم « غرائب الغرب » . ورجع إلى دمشق ، فلقى نفس السخط من حكام الترك ، فهاجر إلى مصر سنة ١٩١٢ ولقى كثيراً من المشقة فى طريقه إليها ، وسرعان ما عاد إلى مسقط رأسه . على أنه لم يلبث فى السنة التالية أن رحل إلى إيطاليا وفرنسا وأواسط أوربا باحثاً عن المخطوطات العربية النفيسة فى مكاتب الغرب ، وعاد ليجد اضطهاد العثمانيين له

قد تفاقم ، فقد أغلقوا صحيفته « المقتبس » ووضعوه تحت رقابة شديدة . ثم عادوا بعد إعلان الحرب الأولى فى هذا القرن ، فعفوا عنه ، ودفعوه إلى العمل معهم والدعاية لهم فى أثناء الحرب ، فصدع لمشيئتهم ، وأعاد صحيفة « المقتبس » وحرر لهم صحيفة أخرى تسمى « الشرق » . وبينما كان فى الآستانة أواخر هذه الحرب سقطت دمشق فى أيدى الحلفاء ، فعاد إليها وتولى رياسة ديوان المعارف ، وأنشأ المجمع العلمى العربى الذى لايزال قائماً إلى اليوم . وعُزل ثم أعاده الاحتلال الفرنسى إلى وظيفته سنة ١٩٢٠ ، وزار أوربا وطوف فى كثير من بلدانها . ويقف هنا ليرد عن نفسه ما أشيع عنه من مديح الانتداب الفرنسى ، وقد آثر أن يترك الوظيفة ، ويخلص لرياسة المجمع العلمى العربى وتأسيسه . ولكن لا نصل إلى سنة ١٩٢٨ حتى نراه يتولى وزارة المعارف ويمثل دولته فى مؤتمر المستشرقين الذى انعقد فى مدينة أكسفورد بإنكلترا ، ويقول إنه أنشأ كلية للآداب وأخرى للإلهيات ، فتمت للجامعة السورية أربع شعب ، هاتان الشعبتان وشعبة للطب وأخرى للحقوق .

ومن طريف ما تتضمنه هذه الترجمة اعتراف صاحبها بمسالأته للحكام من العثمانيين والفرنسيين ، وفى ذلك يقول عن صحيفته :

« كان مذهب المقتبس السياسى معاونة الحكومة بالمعقول وانتقادها عند الاقتضاء وتحبيذها إذا أتت ما تحبّذ عليه . ينزع أبداً إلى إنارة الأفكار وتقوية روح القومية العربية ، وسياسته وطنية ليس فيها شىء من روح الكراهة للأجانب » .

وطبيعى أن يقول ذلك وهو قد اشتغل فعلاً فى الدعاية للعثمانيين فى أثناء الحرب الأولى ، ثم كان ممن آزروا الانتداب الفرنسى فى حكم سوريا الشقيقة . على أن هذه صراحة تحمد له ، ومن نمطها يقول :

وخُلقتُ عَصبيَّ المزاج دمويَّه ، مغرماً بالموسيقى العربية ، محبًّا للطرب والأنس والدعابة ، عاشقاً للطبيعة والسياحة . . وقد أولعت بالتجدد ، ومن عادتى أن

أقف بمعالجته عند حد لا أتعداه إلى هدم أصل من الأصول المقدسة . وأدور من الإصلاح التدريجى العلمى فى دائرة لا تتعدى الثورة فى الأفكار » .

وقد شكا كثيراً من الصحف التى كانت تتحامل عليه والصحفيين الذين كانوا يثلبونه . وسمّى أهم مؤلفاته ، وهى : رسائل البلغاء ، وغرائب الغرب ، وغابر الأندلس وحاضرها ، وتاريخ الحضارة ، والقديم والحديث ، ورواية المجرم البرىء ، وقصة الفضيلة والرذيلة . وآخر مؤلفاته : خطط الشام يقول « وهو كتاب فى مدنية الشام وتاريخه . صرفت فى تأليفه ثلاثين عاماً ، وطالعت لأجله زهاء ألف ومائتى مجلد باللغات الثلاث : العربية والتركية والفرنسية ، وأنفقت فى سبيل تأليفه نحو ألف وخمسمائة جنيه . ويدخل فى ستة مجلدات » . ويذكر طائفة من كتبه لم تطبع ، ويشير إلى مقالاته الكثيرة فى المجلات والصحف وخاصة مجلة المجمع العلمى العربى . وقد توفى سنة ١٩٥٤ م .

٢

طه حسين

فى قرية من قرى مغاغة بصعيد مصر ولد هذا الأديب الفذ سنة ١٨٨٩ للميلاد ، وفقد بصره فى سنٍّ مبكرة ولكن القدر وهبه عوضاً عنه ذكاء حاداً وذاكرة قوية . وكان سابع ثلاثة عشر ولداً لموظف صغير بشركة السكر هناك . ولم يكد يتقدم فى صباه حتى أرسله أبوه إلى كُتّاب القرية ، فحفظ القرآن الكريم وعمره تسع سنوات ، ثم حفظ بعض المتون واستعد لإكمال دراسته فى الأزهر مع أخ له كان قد سبقه إليه . وصحبه معه هذا الأخ وسنه ثلاث عشرة . فالتحق بالأزهر . ولما فتحت الجامعة المصرية الأهلية أبوابها سنة ١٩٠٨ انخرط فى سلك طلابها ، واستمع إلى محاضرات المستشرقين بها ، وأخذ فى تعلم اللغة الفرنسية واستطاع

فى سنة ١٩١٤ أن يلفت نظر أساتذته فى هذه الجامعة برسالته عن أبى العلاء ، فاجتمع رأيهم على إرساله إلى فرنسا فى بعثة ، فدرس أولا فى مونبلييه ، ثم أكمل دراسته فى باريس ، وعنى بدراسة تاريخ الإغريق والرومان وآدابهما كما درس الآداب الفرنسية الحديثة . وعاد إلى مصر فعين أستاذاً بجامعته ، ولما تحولت حكومية أصبح أستاذ آداب اللغة العربية بها ، وتقلب فى مناصب مختلفة ، فتارة يكون عميداً للآداب أو مديراً لجامعة الإسكندرية أو مستشاراً للثقافة بوزارة التربية والتعليم أو وزيراً .

ونراه فى سنة ١٩٢٧ يحاول أن يكتب سيرته ، وقد نشر منها أولا جزءاً خاصًّا بطفولته وصباه . وسماه «الأيام» ، وأتبعه بجزء ثان عن حياته فى القاهرة بالأزهر والجامعة ، وأعطاه نفس العنوان . ونشر ببعض المجلات أخيراً أيامه أو مذكراته عن رحلته إلى فرنسا والمدة التى قضاها فيها ، حتى عاد إلى وطنه .

وهو يصف فى الجزء الأول برقة ودقة حس كيف كان ينمو هذا الطفل الضرير . وكيف أخذ يسيطر تدريجاً على العالم الخارجى من حوله . وكان يشبه فى أول الأمر لغزاً كبيراً أو طلسما لا يستطيع فهمه ولا معرفة كُنْهه . يقول فى السطور الأولى من أيامه :

« إذا كان قد بقى له من هذا الوقت " وقت الطفولة " ذكرى واضحة بيِّنة لا سبيل إلى الشك فيها ، فإنما هى ذكرى هذا السِّياج الذى كان يقوم أمامه من القصب "الغاب" والذى لم يكن بينه وبين باب الدار إلا خطوات قصار . وهو يذكر هذا السياج كأنه رآه أمس . ويذكر أن قصب هذا السياج كان أطول من قامته ، فكان من العسير عليه أن يتخطاه إلى ما وراءه . ويذكر أن قصب هذا السياج كان مقترباً كأنما كان متلاصقاً ، فلم يكن يستطيع أن ينسلّ فى ثناياه . ويذكر أن قصب هذا السياج كان يمتد من شماله إلى حيث لا يعلم له نهاية . وكان يمتد عن يمينه إلى آخر الدنيا من هذه الناحية ، وكان

آخر الدنيا من هذه الناحية قريباً . فقد كانت تنتهي إلى قناة عرفها حين تقدمت به السن ، وكان لها في حياته أو قل في خياله تأثير عظيم . يذكر هذا كله ، ويذكر أنه كان يحسد الأرانب التي كانت تخرج من الدار كما يخرج منها ، وتتخطى السياج وثباً من فوقه أو انسياباً بين قصبه إلى حيث تقرض ما كان وراءه من نبت أخضر . يذكر منه الكرنب خاصة . ثم يذكر أنه كان يحب الخروج من الدار إذا غربت الشمس وتعشّى الناس . فيعتمد على قصب هذا السياج مفكراً مغرقاً في التفكير ، حتى يرده إلى ما حوله صوت الشاعر قد جلس على مسافة من شماله ، والتفّ حوله الناس وأخذ ينشدهم في نغمة عذبة غريبة أخبار أبي زيد وخليفة وديباب ، وهم سكوت إلا حين يستخفهم الطرب . . ثم يذكر أنه كان لا يخرج ليلة إلى موقفه من السياج إلا وفي نفسه حسرة لاذعة ، لأنه كان يقدّر أن سيُقْطَع عليه استماعه لنشيد الشاعر حين تدعوه أخته إلى الدخول فيأبى . فتخرج فتشده من ثوبه ، فيمتنع عليها . فتحمله بين ذراعيها كأنه التمامة "نبت ضعيف" وتعدو به إلى حيث تنيمه على الأرض وتضع رأسه على فخذ أمه ، ثم تعمد هذه إلى عينيه المظلمتين ، فتفتحهما واحدة بعد الأخرى . وتقطر فيهما سائلا يؤذيه ولا يجدي عليه خيراً . وهو يألم ، ولكنه لا يشكو ولا يبكي لأنه كان يكره أن يكون كأخته الصغيرة بكّاء شكّاء . ثم ينقل إلى زاوية في حجرة صغيرة ، فتنيمه أخته على حصير قد بسط عليها لحاف ، وتلقي عليه لحافاً آخر . . ثم يأخذه النوم ، فما يحس إلا وقد استيقظ والناس نيام ومن حوله إخوته وأخواته يغطون ، فيسرفون في الغطيط ، فيلقي اللحاف عن وجهه في خيفة وتردد ، لأنه كان يكره أن ينام مكشوف الوجه ، وكان واثقاً أنه إن كشف وجهه أثناء الليل أو أخرج أحد أطرافه من اللحاف فلا بد أن يعبث به عفريت من العفاريت الكثيرة التي كانت تعمر أقطار البيت وتملأ أرجاءه ونواحيه » .

بهذا الصوت العذب وهذا البوح الصريح عن حياته وكل ما اضطرب فيه من ضيق عيش أو ضيق حِسٍّ يكتب طه حسين أيامه، فيؤثر في نفس قارئه

تأثيراً بعيداً ، ويجذبه جذباً إلى متابعته ومشاركته مشاركة وجدانية ، إذ يأسى لهذا الطفل الضرير وما كان يتقلب فيه من مخاوف وآلام ، جلبهما عليه فقد بصره ، وكانت الدنيا تضيق من حوله ، حتى ليظن أنها تنتهى بقصب السياج الممتد أمام بيته ، وتلك القناة التى لم يكن بينه وبينها إلا خطوات معدودة . وفى النور والظلام ، وفى القصب والقناة أشباح وكائنات غريبة لا تكاد تحصى . ويحدثنا كيف أخذ ينمو وتتسع الدنيا الضيقة القصيرة المحدودة من حوله قليلا قليلا . ولاحظ أن أبويه يحنوان عليه أكثر من إخوته ، فكان يحس من أمه رحمة ورأفة ويجد من أبيه ليناً ورفقاً ، وأحس أن أمه تأذن لإخوته فى أشياء تحظرها عليه ، فكان ذلك يؤذيه ، واستحال هذا الإيذاء إلى حزن صامت عميق ، إذ سمع إخوته يصفون أشياء لا يعرفها ، فعلم أنهم يرون ما لا يرى ، يقول :

« وكان يأكل كما يأكل الناس ، ولكن لأمر ما خطر له خاطر غريب ، ما الذى يقع لو أنه أخذ اللقمة بكلتا يديه بدل أن يأخذها كعادته بيد واحدة ؟ وما الذى يمنعه من هذه التجربة ؟ لا شىء ، وإذن فقد أخذ اللقمة بكلتا يديه وغمسها من الطبق المشترك "بينه وبين أهله" ثم رفعها إلى فمه. فأما إخوته فأغرقوا فى الضحك ، وأما أمه فأجهشت بالبكاء ، وأما أبوه فقال فى صوت هادئ حزين ما هكذا تؤخذ اللقمة يا بنى ، وأما هو فلم يعرف كيف قضى ليلته . من ذاك الوقت تقيدت حركاته بشىء من الرزانة والإشفاق والحياء لا حد له . ومن ذلك الوقت عرف لنفسه إرادة قوية ، ومن ذلك الوقت حرّم على نفسه ألواناً من الطعام لم تبح له إلا بعد أن جاوز الخامسة والعشرين » .

وعلى هذا النحو يعرض علينا طفولته ملونة بالضرورات والأخطاء الطبيعية لفقد بصره ، وقد أخذته هذه الحادثة بألوان من الشدة فى حياته لا فى طعامه وحده ، بل أيضاً فى لعبه ولهوه ، حتى لا يتعرض للضحك أو يثير الإشفاق ، وكان أحب شىء إليه أن يسمع الشاعر أو حديث الرجال إلى أبيه والنساء إلى أمه ، وبذلك تعلم حسن الاستماع ، وكان من أجمل ما يسمعه حينئذ فى مجلس أبيه

قصص الغزوات والفتوح وأخبار عنترة والظاهر بيبرس وأخبار الأنبياء والنساك والصالحين . واسترسل فى السماع ، فهو كل هوه ، فسمع وحفظ الأغانى الشعبية وتعديد النساء ، كما سمع وحفظ الأوراد والأدعية . وفى أثناء ذلك كان يختلف إلى الكُتَّاب لحفظ القرآن ، ويرسم لنا صورة دقيقة عن هذا الكتاب فى القرن الماضى و« سيدنا » الذى كان يحفِّظه والعريف .. ولم يقدم له هذا الكُتَّاب كل ما كان يريد من غذاء عقلى ، فتحول إلى قصة الزير سالم وأبى زيد وغيرهما من المسامرات الشعبية ، وأُنسى القرآن خلال ذلك وعاد إلى حفظه ، وأخذ يستعد للانتظام فى الأزهر ، فحفظ أطرافاً من مجموع المتون والألفية . ونراه يسترسل فى الحديث عن شيوخ بلده وما كانوا يعلّمون الناس ، كما يسترسل فى الحديث عن علم الصوفية وما كانوا يذيعونه من آراء ، ويذكر أنه أكبَّ على كتب السِّحْر والتصوف والقصص الشعبية المختلفة ، ويعرض كثيراً من المعتقدات الخرافية التى كانت تنتشر فى العامة والتى كان لها تأثير عميق فى نفسه ، ويصف وصفاً مؤثراً وفاة أخت له ، وأخٍ نزعته الكوليرا فى سنة ١٩٠٢ وطبع الحادثان حياة الأسرة بطابع حزن لم يفارقها ، فأصبحت فى حِداد متصل وألم يتبع بعضه بعضاً . ويرحل عقب ذلك مع أخيه إلى الأزهر وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، ويأخذ فى الدراسة به إلى جانب أحد أعمدته . ونراه يلتفت فى نهاية هذا الجزء إلى ابنته ، وكانت فى التاسعة من عمرها ، وكان أستاذاً بالجامعة ، فيحدثها عن نفسه حين أرسل إلى القاهرة ليختلف إلى دروس العلم فى الأزهر قائلا :

« إن كان فى ذلك الوقت لصبىٌّ جِد وعمل ، كان نحيفاً شاحب اللون مهملَ الزىِّ أقرب إلى الفقر منه إلى الغنى ، تقتحمه العين اقتحاماً فى عباءته القذرة وطاقيته التى استحال بياضها إلى سواد قاتم ، وفى هذا القميص الذى يبين من تحت عباءته ، وقد اتخذ ألواناً مختلفة من كثرة ما سقط عليه من الطعام ، وفى نعليه الباليتين المرقعتين . تقتحمه العين فى هذا كله ، ولكنها تبتسم له حين تراه على ما هو عليه من حال رثة وبصر مكفوف واضحَ الجبين مبتسم الثغر

مسرعاً مع قائده إلى الأزهر . لا تختلف خطاه ولا يتردد فى مشيته ، ولا تظهر على وجهه هذه الظلمة التى تغشى عادة وجوه المكفوفين . تفتحمه العين ولكنها تبتسم له وتلحظه فى شىء من الرفق ، حين تراه فى حلقة الدرس مصغياً كله إلى الشيخ يلتهم كلامه التهاماً ، مبتسما مع ذلك لا متألماً ولا متبرماً ولا مظهراً ميلا إلى لهو ، على حين يلهو الصبيان من حوله أو يشرئبّون إلى اللهو . عرفته يا ابنتى فى هذا الطور ، وكم أحب لو تعرفينه كما عرفته ، إذن تقدرين ما بينك وبينه من فرق ، ولكن أنى لك هذا وأنت فى التاسعة من عمرك ، ترين الحياة كلها نعيما وصفواً . عرفته ينفق الأيام والأسبوع والشهر والسنة لا يأكل إلا لوناً واحداً ، يأخذ منه حظه فى الصباح ، ويأخذ منه حظه فى المساء ، لا شاكياً ولا متبرماً ولا متجلداً ، ولا مفكراً فى أن حاله خليقة بالشكوى . ولو أخذتِ يا ابنتى من هذا اللون حظًّا قليلا فى يوم واحد لأشفقت أمك ولقدمت إليك قدحاً من الماء المعدنى ولانتظرت أن تدعو الطبيب . لقد كان أبوك ينفق الأسبوع والشهر لا يعيش إلا على خُبْز الأزهر ، وويل للأزهريين من خبز الأزهر ، إن كانوا ليجدون فيه ضروباً من القش وألواناً من الحصى وفنوناً من الحشرات . وكان ينفق الأسبوع والشهر والأشهر لا يغمس هذا الخبز إلا فى العسل الأسود ، وأنت لا تعرفين العسل الأسود ، وخير لك أن لا تعرفيه » ويقرن هذه الحياة البائسة إلى حياته الناعمة التى انتهى إليها ، ويرد ذلك إلى زوجته الفرنسية التى بدلته من البؤس نعيما ، ومن اليأس أملا ومن الفقر غنى ومن الشقاء سعادة وصفواً .

وننتقل معه إلى الجزء الثانى من الأيام ليحدثنا عن سكناه فى أحد الأزقة بجوار الأزهر وما كان يلقى فى مسكنه ومطعمه من ضروب العنت والمشقة ، ويطيل الحديث عن الأزهر وصحنه ودروسه ، وينقل إلينا نقلا دقيقاً صورة الحياة العلمية فيه حينئذ وما كان فيها من صلاح وفساد ، ويشيد بالشيخ محمد عبده ومحاضراته ، ويكثر من ملاحظاته على رفاقه والشيوخ من حوله والصناع والباعة وغير الصناع والباعة من هذا اللفيف الذى كان يؤلف بيئته التى عاش فيها لأول عهده

بالقاهرة . ويغرق فى دروس الأزهر ، ويعود إلى البلدة بآراء جديدة فى الدين ، وينكر الناس منه ذلك . ثم يرد إلى الأزهر فيمعن فى الفقه والنحو والمنطق ، ويأخذ فى جدال الشيوخ ويتعمق فى الاعتراضات والأجوبة على طريقة القوم ، ويقف على حياتهم ، وينقد بعضهم نقداً مرًّا ، ولا يلبث أن يتجه إلى الأدب ودروس الشيخ سيد المرصفى خاصة . فقد وجد فيها ما يسد حاجته ورغبته ، فآثرها على غيرها من الدروس . وأخذ فى نقد الشيوخ وأفكارهم نقداً حرًّا ثائراً ، ورُمى بالكفر والإلحاد فلم يهن ، ولم يضعف ، بل أقبل على قراءة كتب قاسم أمين وغيره من المجددين ، كما أقبل على الجريدة التى كان يصدرها لطفى السيد حينئذ ويذيع فيها آراءه الحرة . وأنشئت الجامعة القديمة . وإذا هو يختلف مع قائده إلى دروس الأزهر مصبحاً وإلى دروس الجامعة ممسياً . ويتسع أفقه عن طريق ما سمعه فى الجامعة من المستشرقين وغيرهم ، بل تفتح له آفاق جديدة ، فقد اتصل ببيئة مغايرة لبيئته القديمة ، واستمع إلى أساتذة لا سبيل إلى الموازنة بينهم — كما يقول — وبين أساتذته فى الأزهر . وعكف على هؤلاء الأساتذة ومحاضراتهم ، وكادت تنقطع الصلة بينه وبين حياته القديمة « إلا أنه ربما ألم بالأزهر مرة فى الأسبوع أو الأسبوعين ، وإلا أنه ربما لقى أصدقاءه من الأزهريين حين كانوا يسعون إلى الجامعة بين حين وحين . وإلا أنه كان يزور الشيخ المرصفى من وقت إلى وقت » .

وعوّل على قطع كل صلة بينه وبين الأزهر لولا أنه وجد عند أبيه رغبة فى أن يتم دروسه به ، فاضطر إلى أن يحيا حياة مشتركة يتجاذبه فيها قديم الأزهر وجديد الجامعة . وإذا كان قد أنهى الجزء الأول من أيامه بتوجيه الحديث إلى ابنته فإنه أنهى هذا الجزء بتوجيه الحديث إلى ابنه ، وكان قد أتم دراسته فى جامعة القاهرة وانتوى أن يعبر البحر إلى باريس ليطلب فيها العلم كما طلبه أبوه فيها من قبل . وما من شك فى أن هذه السيرة الدقيقة تعد فريدة فى العربية فإن كاتبها عرض فيها نفسه وبيئته المصرية من جميع أطرافها فى القرية وفى المدينة وفى الكُتّاب والأزهر والجامعة لا يترك شيئاً هنا وهناك دون أن يحصيه ويرسمه رسماً بارعاً .

٣

أحمد أمين

وأهم ترجمة ذاتية كتبت بعد الأيام هى « حياتى » لأحمد أمين الذى اشتهر بكتاباته فى الحياة العقلية العربية . ولد سنة ١٨٨٦ للميلاد . وكان أبوه مدرساً فى الأزهر وفى مسجد الإمام الشافعى كما كان إمام مسجد ، وعمل حيناً مصححاً فى المطبعة الأميرية ببولاق . فهو لم يولد فى الريف أو فى الصعيد مثل على مبارك أو طه حسين ، وإنما ولد فى القاهرة بحىّ الخليفة . وألحقه أبوه بالكُتّاب ، ثم بمدرسة أم عباس ، وعاد فأدخله فى الأزهر ، وتركه إلى مدرسة القضاء الشرعى فتخرج فيها ، واشتغل مدرساً بها ، ثم قاضياً شرعيًّا ، وفى أثناء ذلك أخذ فى تعلم اللغة الإنجليزية . ولما أصبحت الجامعة المصرية حكومية انتقل إليها مدرساً للغة العربية ، وظل فى كلية الآداب ، حتى أصبح عميداً لها ، ثم اختير مديراً للثقافة بوزارة التربية والتعليم ، فنهض بها ، وأسس الجامعة الشعبية . وسافر إلى أوربا فى بعض المؤتمرات . وكانت حياته العلمية خصبة فترك مؤلفات كثيرة . واشترك فى ترجمة غير كتاب ، وترجم أحياناً منفرداً . وما زال يواصل جهاده فى التأليف ، حتى توفى سنة ١٩٥٤ .

وترجمته « حياتى » كتبها فى أواخر أيامه ، فهى تصف حياته من أولها إلى نهايتها تقريباً ، غير أنها لا تعنى بهذه الحياة بمقدار ما تعنى بالأحداث الهامة التى ارتبطت بها ، فهو فيها إلى ذوق المؤرخين أقرب منه إلى ذوق الأدباء مثل طه حسين ، وربما دفعه إلى ذلك دراساته السابقة فى العرب وتاريخهم وحياتهم الفكرية ، فانحدر فى أغلب ما كتب من تاريخ نفسه إلى تاريخ عصره ، ولم

يعن بأحداثه بل تحول مؤرخاً يسجل . وهو فى هذا التسجيل قلما انفعل بما يرى ويشاهد على عكس طه حسين فى أيامه التى تشبه مرآة صافية تعكس كل حياته بدون أى حجاب أو أى مواربة . وقد يرجع ذلك إلى حياء شديد فى أحمد أمين . جعله يخفى كثيراً من جوانب حياته أو قل من جوانب نفسه ، ولعل من الطريف أنه اعترف بذلك فى مقدمته . فقال إنه لم يذكر كل الحق لأن منه ما يرذل قوله وتنبو الأذن عن سماعه ، وكان ينبغى أن يذكر الحق كله ، حتى يكون الكتاب اعترافات كاملة وترجمة شخصية تامة .

ومع ذلك فالكتاب فيه غير قليل من الاعترافات . وهو يسوق ذلك فى بساطة . تشوق القارئ إلى متابعته . ونراه يستهله بأن الإنسان نتيجة حتمية لكل ما مر عليه وعلى آبائه من أحداث . وكأنه يؤمن بعامل الوراثة والبيئة فى تكوين الشخص . ولكنه لم يحدثنا طويلا عن أثر الوراثة فيه ، فقد عُنى بالبيئة أكثر مما عنى بالوراثة . ويقول إنه مصرى صميم نزحت أسرته من قرية من قرى مديرية البحيرة فى الدلتا إلى القاهرة فراراً من ظلم الحكام للفلاحين فى تحصيل الضرائب وتسخيرهم كالعبيد . وعاشت الأسرة فى حى الخليفة . والتحق أبوه بالأزهر وتخرج فيه ، وأصهر إلى أسرة من العطارين هاجرت من مديرية المنوفية إلى القاهرة . وكان رابع ولد أنجبه أبوه . ويصف لنا مسكنه البسيط وحارته . ويطيل فى وصف سكان الحارة . وكأنه يريد أن يطلعنا على الحياة فى أحياء القاهرة أواخر القرن الماضى . ولم تكن المدنية قد تغلغلت فيها ولا أثرت فى سكانها . فالحياة فى البيت وخارجه قديمة . تغمرها العواطف الدينية . ويحدثنا أنه كان ضعيف البصر ، كليل النظر ، ورث ذلك عن أمه كما ورث عن أبيه الإفراط فى الجد وتحمل المشقات والاستجابة لعوامل الحزن والإيمان بالله إيماناً لا تزلزله الفلسفة ولا تشكك فيه مطالعاته فى كتب الملحدين . وكانت معيشته فى بيته أثناء نشأته بسيطة . فشبّ وشاخ لا يحفل بمأكل ولا مشرب ولا ملبس . بل يحب البساطة فى كل شىء

حتى فى الحديث والإلقاء والكتابة . ويدخل الكُتّاب ليحفظ القرآن، ومن أجمل ما فى هذه الترجمة وصفه لذلك الكتاب وطريقة التعليم فيه، يقول :

« هو حجرة متصلة بمسجد وبجانبها دورة مياهه . وأثاث هذه الحجرة حصير كبير بال . قد انسلّت منه بعض عيدانه . وزير فيه ماء يكاد يسودّ من الوسخ . عليه غطاء من خشب . قد ثبت فى الغطاء حبل طويل ربط فيه كوز ليستقى منه الشارب . ويتناول الكوز ليشرب منه النظيفُ والقذر والمريض والصحيح، وصندوق صغير من صناديق الجاز وُضعت فيه ألواح . بعضها صفيح قديم، وبعضها خشب قد زال طلاؤه . كُتب عليها بعض آيات القرآن بالحبر الأسود فلا تكاد ترى . وشيخ قد لبس عمامة وقباء من غير جبة وبيده عصاً طويلة . ومسمار كبير فى الحائط علقت فيه "الفلقة" وهى عصاً غليظة تزيد قليلا على المتر ، ثقب فيها ثقبان ثبت فيهما حَبْل . فإذا أراد سيدنا ضربَ ولد أدخلت رجلاه فى هذا الحبل ولويت عليهما الخشبة . فلا تستطيع القدمان حركة ، ونزل عليهما سيدنا بالعصا . ثم عدد من الجريد طويل يستطيع سيدنا أن يضرب به أقصى ولد فى الحجرة . وهذا كل أثاث الكتاب . نذهب إليه صباحاً ، ونجلس على هذا الحصير متربعين متلاصقين . ويأخذ كل منا لوحه من الصندوق . وكان لوحى جديداً ، إذ كنت مبتدئاً . وكان لسيدنا عريفٌ يساعده فى كتابة الألواح للأطفال ويقوم مقامه إذا غاب . كما يساعده فى مدّ رجل الطفل فى الفلقة عند الحاجة . ويقرأ كل تلميذ فى لوحه حسب تعلمه ، هذا يقرأ ألف باء وهذا سورة الفاتحة . وهذا سورة تبارك وهكذا . فإذا فرغنا من قراءة الدرس الجديد استمع لنا الماضى . وهو ما حفظناه من القرآن فى الدروس الماضية . فإذا جاء وقت الغداء أخذ سيدنا من كل ولد قرشاً أو نصف قرش أو مليما حسب مقدرته ، وبعث سيدنا العريفَ . فأحضر له ماجورين أخضرين : فى أحدهما فول نابت ومرقة . وفى الآخر مخلل ومرقة . والتفّ التلاميذ حوله بعد أن أحضروا خبزهم الذى جاءوا به من بيوتهم ، وأخذت أيديهم تغوص باللقمة فى

مرقة الفول أحياناً وفى مرقة المخلل أحياناً ، ولا بأس أن يكون فى الأولاد مريض وصحيح وقذر ونظيف وملوث وغير ملوث . فعلى الله الاتكال . والبركة تمنع من العدوى . وإذا قرأنا وجب أن نهتز ووجب أن نصيح ، فمن لم يهتز أو لم يصح لم يشعر إلا والعصا تنزل عليه فيصرخ ويصيح بالقراءة والبكاء معاً ، ونبقى على هذه الحال إلى قرب العصر . فنخرج إلى بيوتنا . ومن حين لآخر يمر أبو الطفل على سيدنا ، فيسأله عن ابنه ويطلب منه أن ينفض له الفروة . وهذا اصطلاح بين الآباء وفقهاء الكُتَّاب أن يشتدوا على الطفل ويضربوه ، فلا تعجبْ بعد ذلك إذا وجدت أرواحاً ميتة ونفوساً كسيرة . ومن أجل هذا كان أكره شيء علينا الكُتَّاب واسم الكتاب وسيدنا » .

ومكث فى الكُتَّاب خمس سنوات حفظ فيها القرآن وتعلم القراءة والكتابة . وكان أبوه يرعاه أثناء ذلك فى البيت . فيتلو أمامه ما حفظه ويسمعه . ويلحقه بمدرسة أم عباس ثم يخرجه منها فى الرابعة عشرة من عمره ويلحقه بالأزهر . فيلبس العمة والمركوب ويدخل فى الجبة والقفطان . ويقيده هذا الملبس ، فلا يجرى كما يجرى الأطفال ولا يمرح كما يمرح الفتيان ، وبذلك شاخ قبل الأوان . ويصبح من طلبة الأزهر يختلف إلى حلقاته ودروسه ، ويصف لنا كيف ضاق بطريقة التعليم فيه كما ضاق بها من قبلُ طه حسين : وتعلن الجمعية الخيرية الإسلامية عن حاجتها إلى مدرسين لتعليم اللغة العربية . فيترك الأزهر ويصبح من مدرسى هذه الجمعية ، ثم يتركها إلى وزارة التربية والتعليم . ويعطينا صورة واضحة عن التعليم فى المدارس حينئذ . وتفتح مدرسة القضاء الشرعى أبوابها فى سنة ١٩٠٧ فينتظم فيها . ويستمع إلى من يحاضرون بها . وكانوا من خيرة الأساتذة . وكان ناظرها عاطف بركات من خيرة النظار . تخرَّج فى مدرسة دار العلوم وتعلم فى أوربا وعرف نظم الجامعات بها . فلما وُكلت إليه هذه المدرسة حوَّلها جامعة صغيرة يدرِّب فيها الطلاب على حرية الرأى ويأخذهم بأسباب البحث ، وقد أعجب بالطالب أحمد أمين . فعينه عقب تخرجه معيداً

له فى دروس الأخلاق، ثم عيّن قاضياً شرعيًّا فى الواحات الخارجة ، ولم يلبث أن عاد إلى مدرسة القضاء الشرعى ، وأحس حاجته إلى تعلم الإنجليزية ، فأخذ فى تعلمها ووفق إلى سيدة إنجليزية كان لها أثر كبير فى عقله ونفسه، وفى هذه الأثناء ألف مع جماعة من خريجى مدرسة المعلمين « لجنة التأليف والترجمة والنشر » ولها فضل عظيم فى حياتنا الأدبية والعلمية بما ألف أعضاؤها وترجموا ونشروا من كتب مختلفة . وأخذ يتصل بالأندية الأدبية وبجريدتى المؤيد والسفور وغيرهما من جرائد وصحف مما كان له أثره فى تنمية نزعة الكتابة والمحاضرة عنده . ونراه يعرض علينا زواجه وجانباً من حياته المنزلية فى سلوكه مع زوجته وتربية أولاده . وتنشب الحركة الوطنية ، ويسهم فيها ولكن بقدر ، وينقل من المدرسة إلى القضاء الشرعى ، فيظل فيه أربع سنوات ، يدعوه فى نهايتها صديقه طه حسين لأن يكون مدرساً بكلية الآداب ، فيلبى دعوته ويصبح بين مدرسى هذه الكلية ، وكانوا خليطاً من المصريين والأجانب . ويخلع زيه القديم ، ويلبس الزى الأوربى الحديث، ويندمج فى الحياة العلمية الجامعية ويأخذ فى تأليف كتبه القيمة . ويسافر إلى الآستانة للبحث عن بعض المخطوطات . ويصف لنا تركيا فى عهد مصلحها العظيم كمال أتاتورك كما يصف مكتباتها الغنية بالكتب العربية . وتتاح له فرصة زيارة الشام والعراق فى رحلات الطلاب ، ويصف لنا مشاهداته هنا وهناك . وفى سنة ١٩٣٢ يحضر مؤتمر المستشرقين الذى انعقد بليدن فى هولاندة . فطوف فى بلدان أوربا ورأى المدنية الغربية تحت عينيه لأول مرة ، وأكمل استفادته من هذه الرحلة برحلة أخرى سنة ١٩٣٨ إذ اختير عضواً فى مؤتمر المستشرقين الذى انعقد فى بروكسل .

ويخرج من حديثه عن رحلاته إلى وصف حياته فى الجامعة وكيف تطورت حتى عين عميداً لها ويحدثنا عن كثير من مواقفه الحازمة فى عمادته وبمجلس الجامعة . ثم يترك العمادة ويخلص للأستاذية والتأليف والنشر . ثم ينتدب مديراً للثقافة ، ويمثل مصر فى مؤتمر فلسطين الذى انعقد بلندن سنة ١٩٤٦ . ويحال

أخيراً إلى المعاش ويضطر إلى عملية فى شبكية عينه، ويصف وصفاً مؤثراً مشاعره حين دخل المستشفى لإجراء هذه العملية . وينال تقدير الدولة فيمنح درجة الدكتوراه الفخرية من الجامعة وجائزة الدولة الأدبية . هذه هى سيرته ، وهى تطوى فى تضاعيفها سيرة ستين عاماً من حياتنا بما فيها من أحداث ورجال وتطور فى شئوننا الاجتماعية والعلمية .

obeikandl.com